جامعة المنصورة

كليـة الآداب

ـ

(بناء الشخصية في رواية "حمّالة القمح")

إعـداد

أ.د خالد سليمان الخلفات

قسم اللغة العربية وآدابها/ كلية الآداب

جامعة الطفيلة التقنية /الطفيلة – الأردن

مجـلة كلـية الآداب – جامعــة المنصــورة

العدد الثانى و الستون – يناير ٢٠١٨

(بناء الشخصية في رواية "حمّالة القمح")

أ.د خالد سليمان الخلفات

المُلخص

يدرس هذا البحث بناء الشخصيات في رواية حمالة القمح للكاتب الدكتور أحمد عطية السعوي التي تدور أحداثها في قرية بصيرا عبر ثلاثة قرون ودراسة مهارات الكاتب في بناء الشخصيات في الرواية (عائشة الأم وزوجها عطية وضيف الله وغيرهم من شخوص الرواية) ومهارة الكاتب في رسم شخصيات عائلة هم أبطال الرواية ومثلت ستة أجيال في هذا المكان الجد والآباء والأبناء والأحفاد ثم مهارة الكاتب في الحفاظ على خيط قوي بين يربط الأجيال ببعضها وحمل هذا الخيط الصفات المتوارثة نفسها.

الكلمات المفتاحية: رواية (حمّالة القمح)، بناء الشخصية ، وصف الشخصية.

Abstract

The study examines the creation and development of fictional characters in the novel entitled Hammalet Al-qamh by Dr. Ahmed Attia Al-Soudi, which takes place in the village of Bsayra over three centuries. In addition, the study examines the skills of the novelist to create and develop the characters in the novel (i.e. Aisha, the mother, her husband, Attia, Dheifallah, and other characters in the novel) and his skills in the creation of family characters, who are the novel's main protagonists representing six generations in the village: grandfather, fathers, children, and grandchildren. It also investigates the novelist's skills in maintaining a strong thread running through all generations and carrying the same inherited qualities.

Keywords: Novel (Hammalet Al-qamh), construction of characters, characterization

مقدمة

حمّالة القمح رواية للكاتب الدكتورأحمد عطية السعودي صدرت هذا العام ٢٠١٩م عن دار المريخ للنشر ودار وائل للنشر والتوزيع، عمان- الأردن. في (٢٦٨) صفحة من القطع المتوسط.

تحكي الرواية قصة عائلة في مدينة بصيرا (القرية قديما)، وسكان هذه القرية، ومن عاصر هذه العائلة وعاصر أجيالها الستة، شأن هذه القرية، شأن أي قرية أخرى في الأردن، في القرن والنصف المنصرمين(النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين بأكمله والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين). وهي الفترة الزمنية التي عاشت فيه هذه العائلة بأجيالها المتعاقبة جيلا بعد جيل، وهم أبطال الرواية.

حيث تمتد أحداث الرواية لتشمل ما مر بهذه القرية من أحداث اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية وتعليمية. وما رافق ذلك من مظاهر ثقافية وحضارية.

فهي رواية ترسم حكاية ستة أجيال من هذه العائلة، الجيل الأول هو جيل الجد سلمان ثم جيل الابن محمدثم الجيل الثالث جيل الحفيد القاضي قاسم العُقبي، ثم جيل ضيف الله ثم جيل عطية، وأخيرا جيل أبناء عطية سامي وإخوته، ومن كان معاصرا من أهل القرية لكل جيل من أجيال هذه العائلة.

وقد نجح الكاتب في الحفاظ على خيط قوي متين، نجح في بناء نسيج متكامل متداخل مترابط، لا قطع فيه بين هذه الأجيال، بأسلوب محكم

السّبك، لا يشعر المتلقي أنه انتقل من جيل إلى جيل، إلا من خلال ما يحدث في القرية من تطورات حضارية وتقنية وعلمية، عاشتها الأجيال أخيرا، بدءا ببناء المدرسة، ثم ظهور السيارات والراديو والتلفاز والحديث عن الحروب العربية والعالمية، التي يعرف القراء تواريخها، وفظاعة نتائجها حين وضعت أوزارها.

بناء الشخصية في الرواية

الشخصية في الرواية هي مركز الأفكار، وهي مجال المعاني التي تدور حولها الأحداث من خلال حركتها، ومن خلال العلاقات التي تربطها ببعض، الشخصية هي مجرد أحجار شطرنج يستخدمها الكاتب في لعبته الفكرية والفنية، فهي لا تستطيع أن تتحرك، أو تتنفس إلا وفقا لرعايته، فهو الذي يرسم لها قانونها الأخلاقي، ويملي عليها التصرف ضمن مضمونها الخاص[١].

ترتبط الشخصية بالأحداث في الرواية، وكل منهما فاعل في الآخر، ولا يمكن أن نتحدث عن الشخصية دون أن نتحدث عن الحدث نفسه.[٢]

يقول ميشال بوتور:" إن الرواية تقص بواسطة مغامرات أفراد وتحكي تحركات مجتمع بأسره "[٣]

وعادة ما يقوم الروائي بتصويرالعالم الداخلي لشخصياته، وكذلك يصور العالم الخارجي لها؛ لأن الصراع الداخلي ما هو إلا ردّ، أو انعكاس لما يحدث في العالم الخارجي، فالروائي كالرسام يحتاج إلى مهارة في التعامل مع الألوان والخطوط؛ ليشبع فضول القارئ، ويقنعه بنقل الشخصية الروائية من الواقع الحقيقي إلى الواقع الروائي الذي يتلاءم مع هذه الشخصية[٤].

ولذلك فإن وصف الشخصية يعتبر فنّا في حد ذاته، لا يستطيع بلوغ النجاح فيه أي كاتب إلا إذا كان أديبا دقيق الملاحظة، صاحب حس مرهف، وقلم سيّال.

يهتم الروائي باستنباط شخصياته وإيجادها، وهو حين يوجد شخصياته من الواقع إنما يستعين بتجاربه التي عاشها، أو عاناها أولاحظها، وفي الروايات تبدو الشخصيات طبيعية متفقة، مع كل ما تصبح به الحياة في الواقع في الفهم لطبيعة النفس الإنسانية، والقدرة على اكتناه ما يدور في أعماق الإنسان ما يساعده على رسم هذه الشخصيات بكل صدق ووعي[٥].

<u>أنواع الشخصيات في الرواية</u>

يرى النقاد أن الشخصيات في العمل الروائي أنواع خمسة[٦]:

(١) انظر: الأعرج وسيني: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص٨٧

(٢) أ.م. فورستر: ، أركان القصة ، أ.م فورستر، ترجمة كمال عياد، دارالكرنك ، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٥٥

(٣) ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، بيروت، منشورات عويدات، ص٧٧

(٤) انظر: بناء الشخصية في الرواية الجزائرية، وطن من زجاج " لياسمينة صالح أنموذجا " رسالة ماجستير، جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية ٢٠١٤/٢٠١٥ م ،إعداد الطالبة: صبرينة زبابجة .إشراف: حورية مباركي، ص١٦

(٥) انظر: إبراهيم خليل: بنية النص الروائي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، عمان، ٢٠٠٩، ص ١٧٤.

(٦) مصطفى النواتي: فن الرواية الذهنية لدى نجيب محفوظ، تونس، مطبعة تونس قرطاج،١٩٨١، ص ٣٤

النوع الأول: شخصيات ثابتة أو مسطحة، وهذه الشخصية المسطحة تمثل فكرة، أو صفة، لا تفارقها، ولا تستطيع الأحداث أن تغيرها، أو تعدل من سلوكها، فتبقى ثابتة، لأنها اتخذت خطاً ثابتاً، أو لأنها تتقمص عادات أوإشارات تعرف بها وتصبح سمتها[٧]. وهي شخصية محددة الدور تأتي عابرة تدور حول فكرة واحدة ولا تمتلك العمق أو أي تحولات كتلك التي تمتلكها الشخصية النامية أو الدرامية السابقة، ولذلك فهي شخصية تسير على وتيرة واحدة لا تتغير.

وهذه الشخصيات لا تشغل حيّزا واسعا في الرواية وليس لها حضور كبير وتظهر في مشاهد قليلة في الرواية مثل سلمان الجد فقد كان حضوره في بداية الرواية وانتهى دوره لأنه فارق الحياة، وكذلك شخصية المعلم عمر العناني الذي مر في الرواية بمشهد ضربه للضابط الإنكليزي بعصا المكنسة. لكن بقي تأثير موقفه هذا كبيرا عند تلامذته وأهل القرية.

ومن هذا النوع من الشخصيات صابر وحليمة وابنهما سارية، وسرحان وسهوان، ويونس الأخرس، وسلامة سعيد، وعلي الرميثي وأخوه سالم ومياسة.

النوع الثاني: شخصيات نامية أو(المستديرة)، حيث يتدرج الروائي في تقديم إطارها وملامحها وصفاتها واتجاهاتها، حسب تطور أحداث الرواية، تنمو مع تنامي أحداثها. وتسمى أيضاً الشخصية الدرامية[٨] ومعيار هذه الشخصية ومعرفتنا لها هو في مدى قدرتها على إثارة الدهشة بطريقة مقنعة. وهذه الشخصية تسيطر على العمل الروائي ونجدها في كل فصول الرواية.

وهي ذات أبعاد كثيرة فهناك البعد الجسدي، أي ما فيها من صفات خارجية، والبعد النفسي وتشمل الحالة النفسية وصفات الشخص النفسية، والسيكولوجية، والبعد الفكري،(عقيدته أفكاره، رؤيته الفلسفية، رأيه في الحياة)... إلخ والبعد الاجتماعي، يشمل علاقته بالآخرين، ودوره في مجتمعه وقوة تأثيره في البيئة من حوله.

ومن هذه الشخصيات في هذه الرواية: قاسم العقبي قاضي العشائر، وضيف الله، وعطية، واجميعة، وعائشة، وقد كان لكل منهم دوره الرئيس في صناعة أحداث الرواية على امتداد أجيال العائلة.

النوع الثالث:الشخصية النموذجية، والشخصية النموذجية تجسيد مثالي لصفة أو طبقة أو مجموعة خاصة من الناس.[٩] ويعّرف النقّاد الشخصية النموذجية بأنها " تكثيف لسمات أخلاقية واجتماعية وتاريخية في مرحلة ما في مكان ما"[١٠] ومن أمثلتها في الرواية هنا (اجميعة، عطية، عائشة، ضيف الله ،أحمد،...)

النوع الرابع: الشخصية النمطية، فهي شخصية عادية مسطحة لا تنمو ويضعها الروائي

(٧) انظر: الخطاب الروائي في رواية متاهة الأعراب في ناطحات السحاب للروائي مؤنس الرزاز. د. نجود. عطاالله الحوامدة، وزارة الثقافة الأردنية، ط١، ٢٠٠٩، ص٧١

(٨) انظر: أركان القصة ، أ.م فورستر، ص ٨٣

(٩) عبدالله رضوان: النموذج وقضايا أخرى، عمان، رابطة الكتاب الأردنيين، ١٩٨٣م، ص١٤

في الرواية بصورة تلقائية، لا صعوبة فيها، وهي غير قادرة على التعميم؛ لأنها صورة قريبة من الواقع، ولا تساعد على عمل فني متكامل ولا تتناقض مع الطرح العام الذي يريده الروائي[١١]. ويمثلها في الرواية كم هائل من الشخصيات علي الرميثي، وأخوه سالم ومياسة، وغانم وسويلم وغيرهم.

النوع الخامس: ما يسمى بالشخصية الغامضة. ومسألة غموض اسم الشخصية مثير للاهتمام عند القارئ. والروائي هو "أول من يحدّ من ذلك الغموض، ويحاول تلافيه، بجعله موضوعا للتأويل، وإبداء الإيضاحات، فتتخذ منه مناسبة لاستعراض قصة ذلك الاسم والملابسات التي أدت إلى خلعه على صاحبه[١٢].

ومن أمثلة هذه الشخصية في رواية حمّالة القمح شخصية خنيفس الشرطي أو رجل الأمن في القرية، إذ يتحدث عنه الكاتب بصورة مقتضبة، محفزا الناس ليعرفوا كل شيء عنه، يقول وهو ينقل حوار بعض شخصيات القرية : " قالوا: "خِنيفس" الذي يتقرّبُ إلى سيدِه الخواجا بأفعالِه الشَّنيعة:

ذنبُ الكلبِ لا يعودُ سَوياً

لو رموهُ في قالبٍ ألفَ شهر!

قال: بئسَ ذاك الوحش الذي يتلذّذُ بتعذيبِ فريستِه، لا يُفرّق قلبُه بين طفلٍ، أو امرأة، أو رجل، وأدنى العذاب عنده أنْ يُدخلَ الآدميَّ في كيس، ويُسلّط عليه قطّةً جائعة، يحشرُها معه داخلَ ذلك الكيس المُغلق، فلا تزالُ القطةُ تَخْمِشُه، وتجرّحُه، وتضطربُ على جسده، وتُدمي عينيه، وتمزّقُ لحمه، والذئبُ الأغبرُ لا يفتأ يضربُ الكيسَ بعصاه يُهيّجُ القطة، ويؤلمُ الآدميّ، حتى يعترفَ بما لم يفعلْ، وقد انتابَهُ جُنون، أو ما يشبهُ الجنون!

قالوا: عسى الله أن يخلّصَ أرضَ النبيّ مُحمّد عليه الصّلاة والسلام، من الكلاب وأذنابِها، ويجعلَ بأسَهم بينهم، ويسلّطَ عليهم الأوجاعَ الفتّاكة، ويذيقَهم لباسَ الجوعِ والخوف."[١٣]

طرق تقديم شخصيات الرواية

يلجأ الكتّاب إلى طرق متباينة في تقديم شخصيات رواياتهم، فمنهم من يدقق في رسمها أو يحجب عنها كل وصف مظهري، وهناك من يقدمها بشكل مباشر حيث يخبرنا عن طباعها وأوصافها أو يوكل ذلك إلى شخصيات أخرى، كما قد يكون التقديم بشكل مباشر، حيث يترك الكاتب للقارئ أمر استخلاص النتائج والتعليق على الخصائص المرتبطة بها، من خلال الأحداث التي يشارك فيها الأفراد أو عبر الطريقة التي تنظر بها الشخصية إلى الأخرين.[١٤]

بشكل عام هناك أربع طرق يتبعها الكاتب في تقديم شخصياته الروائية كما يرى بورتوف[١٥]:

(١١) انظر: عبد الله رضوان: النموذج وقضايا أخرى، ص٤٦، الحوامدة: الخطاب الروائي، ص٧٣

(١٢) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء الزمن الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠، ص٢٥٤.

(١٣) حمّالة القمح، د. أحمد عطية السعودي، دار المريخ للنشر ودار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٩ ، ص ٢٠-٢١

(١٤) انظر: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص٢٢٤

(١٥) انظر: عالم الرواية: بورتوف أوئيليه، ترجمة نهار لبنان،، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠، ص ١٥٨

أولا: عن طريق الشخصية نفسها.
ثانيا: أن تكون بواسطة شخصية أخرى.
ثالثا: أن تكون بواسطة الراوي للقصة.
رابعا: طريقة الجمع بين الطرق الثلاث أي أن يقدم الشخصية من خلال الشخصية نفسها، أو من خلال شخصية أخرى، أو من خلال الراوي.

والكاتب يتوخّى وهو يرسم شخصيات روايته الاهتمام بهذا العنصر الروائي، أي عنصر الشخصية باعتبارها اللبنة الرئيسة في العمل الروائي التي قامت عليها فكرة العمل كله.

بناء الشخصية في رواية حمالة القمح وأوصافها

في رواية (حمّالة القمح) حشد الكاتب كمّا هائلا من الشخصيات على مدار الأجيال التي ذُكرت، والبطل الرئيس ومحور هذه الشخصيات هي عائشة الأم (حمّالة القمح) التي اختارها الكاتب لتكون عنوانا لروايته، بكل ما يحمل هذا العنوان (سيمائيا) من دلالات ومعانٍ .

حمّالة القمح إذن هي رمز الخير والعطاء، هي نهر فياض بالمحبة، والقمح هو رمز الخصب والخير وعطاء الأرض، الذي لا ينضب طالما المطر ينزل. واختيار القمح عندنا هو دلالة النعمة والخير عند الفلاحين البسطاء، خير الأرض الذي لا يتوقف، بإصرار المكافحين وعزائمهم، من أمثال ضيف الله وزوجته اجميعة، وعطية وزوجته عائشة، وغيرهم من أبطال الرواية عبر الأجيال الستة. وحمالة القمح رمز للكفاح والتعب والمشقة في كل فصول السنة، حين ننثر بذور القمح في الأرض، وحين نرعاها ونتابعها في فصل الشتاء، وحين نبتهج لمنظرها في الربيع، ثم حين يأتي حصادها وجمع الحبوب بعد البيدر، وهكذا إنه اسم يليق بامرأة ريفية من قرية تعيش على خيرات الأرض. سيميائية العنوان تثير الدهشة، فالمتوقع حين تسمع كلمة (حمّالة) أن نكمل فنقول: (حمالة الحطب)، لنعود إلى امرأة ورد ذكرها في القرآن الكريم، هي زوجة أبي لهب، لكن شتان بين الصفتين تلك هي المفارقة.

وعندما يلجأ الكاتب إلى وصف شخصية عائشة ب(حمّالة القمح) فهو يعني ما يريد ف(حمّالة) صيغة مبالغة في علم الصرف، وهي تعني الكثير لغوياً ومعنوياً وسيميائياً، فهي التي حملت هموم العائلة، وهي التي كافحت وناضلت من أجل أن يعيش أفرادها على الخير والمحبة والطاعة والالتزام. وبذلت طيلة حياتها كل ما تملك من جهد لتصنع عائلة كبيرة، وهنا تأتي مهارة الكاتب وهو يوظف كل ما يملك من مهارات؛ ليبني لنا شخصية بطلة الرواية والشخصية المحورية فيها، وتقديم أوصافها لنا كما تظهر في الرواية يقول الكاتب: " فقد دُعيتْ إلى الانهماك في أعمال الأسرة الشَّاقة للظفر بكسرة خُبز تُقيمُ الأوَد، أو خِرْقة ثوب تسترُ الجسد، وتلك هي الأماني العزيزة التي يُراقُ على جوانبها الدّمُ، ونَهَدتْ تُعينُ زوجَها وأمّه على مُدافعة كُثبان البؤس، وإيجاد موطئ قدم لهم تحت الشمس في زمن صاخبٍ يرى أهلُه أنّ الكذبَ مِلْحُ الرجال، وأنّ

الذي لا يسرقُ لا يُعدّ رجلاً، وأنّ مَنْ لم يكن ذئباً أكلته الذئاب!"[١٦]

وهو يقدم لنا من خلال النص السابق الصورة الاجتماعية لعائشة محور البيت وما تقوم به من أدوار لخدمة الجمع، والتفاني من أجل ذلك، إنها لا تعيش لنفسها، إنها تعيش لغيرها، ليس فقط لعائلتها فحسب، بل لكل من حولها.

في هذه الرواية استطاع الكاتب بما يملك من ذكاء وذاكرة ومهارة وثقافة ولغة أن يحشد كمّاً هائلاً من الشخوص، نجدهم في صفحات الرواية، بل ربما نرى في كل صفحة شخصية جديدة حتى لو كانت عابرة، وربما نجدها في قصة أو حكاية يسردها أحد أبطال القصة على الآخرين. ولذلك نرى هذه الشخصيات(سلمان وابنه محمد والحفيد قاسم العقبي قاضي العشائر وعلي الرميثي وأخاه سالم ومياسة وضيف الله والشيخ رشيد وكلوب باشا وخنيفس وعلي وعلياء وسحيمان واجميعة وعطية وعائشة وحنيش ورقطاء وبشير والرواجفة وصابر وحليمة وابنهما سارية وسامي وسامية وياسين وعودة الله وجبريل وسالم بن بشير وجميل المعاني ومحمد الحلبي ومحمد بن عطية وسلمان وعيد بن متاح وإسماعيل وعودة بن خليل وسرحان وسهوان ويونس الأخرس والمعلم عمر العناني والمعلم محمد بدران وعالمة الآثار الإنكليزية بينت والطبيب معين التل والطبيب ياسين المعاني وسلامة سعيد وريان ووداد وأحمد بن عطية وخالد بن عطية والشيخ الدباغ ومحمود العونيين وابن عياش والشريف وابنته وأحمد هليل وفالح ابن عم وداد وحسام بن عطية ومحمد أبو عوينة وجاين الإنكليزية زوجة سارية وعاصية وأم عامر ابنة عطية والحاج حسين، والحاجّ نصرُ الله، والحاجّ مُفلح بن حصيدة، والحاجّ عواد البشايرة وروسفيلد والصفدي (بناء الحجر) والمعلم راشد العوض، وشيوخ المسجد الشيخ محمّد المصري أبو سُهيل، والشّيخ سالم الخطيب، والشيخ محمد بن مطلق السعوديّ، ومؤذنو المسجد الحاج حسين، والحاج نصر الله، والحاج نهار بن مفلح، والحاجّ أحمد بن درويش، والحاج أحمد بن سلامة. وغيرهم)

بالإضافة إلى حشد هائل من أسماء أبطال القصص التي وردت في الرواية على لسان أحمد، أو على ألسنة الأبطال الآخرين، حيث تنوعت هذه القصص من قصص تاريخية وقصص على ألسنة الحيوانات وقصص عالمية وعربية وحكايات شعبية...إلخ

هذا الكم الهائل من الشخصيات بعضها كان محركا وصانعا للأحداث، وبعضها الآخر وهو الكثير كانوا عابرين– إن جاز التعبير– أو ثانويين في صناعة الأحداث.

في العادة هناك طريقتان[١٧]في بناء الشخصية الروائية، والوقوف عند وصفها؛ لتظهر للقارئ جلية واضحة:

الطريقة الأولى: بناء الملامح الخارجية لشخصية الرواية، أي وصف الشخصية من

(١٦) الرواية، ص٤٤

(١٧) انظر: فن القصة: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ، ١٩٥٩م، ص٩٨

الخارج، الاسم والعمر والمهنة وصفاته الجسمية وعلاقاته مع الآخرين ومظاهر هذه الشخصية من الخارج.

ومن الأمثلة على الطريقة الأولى من رواية حمّالة القمح وصف الكاتب لشخصية ضيف الله "ذلك الشاب الطويل وضيء الوجه، ضخم البنية الذي بلغ أشده واستوى"[١٨]

وكذلك نجد وصفا لعائشة ورد على لسان اجميعة أم عطية في حوار يدور بين شخصيتين: شخصية اجميعة، وشخصية الخاطب، فعائشة فتاة سمراء مليحة جميلة، هي الثريا بجمالها وحسنها، لكنها نزلت إلى الأرض، وهي ملكة جمال، لو أقيمت مسابقة لملكات الجمال هنا، ثم يقف عند الاسم، ولماذا سميت عائشة؟ فهي سميت على اسم عائشة أم المؤمنين، زوجة رسول الله عليه السلام، وهنا تتجلى مسألة مهمة هي الروح الدينية التي تتمسك بها هذه العائلة: "سأخْطُبُ لك فتاة مليحةً سَمراء، كانت مع الثُّريا في كَبِد السّماء، فهبَطتْ إلى الأرض، وأقامتْ بين الناس، فسمّاها أهلُها عائشة على اسم أمّ المؤمنين، ولو قد تواطأ البشر على انتخاب مَلكة جمال الرُّوح، لكانتْ هي، أو تواطأوا على صُورة العفاف ومثال الطُّهر لإنسان كُوِّن من نقاء ونور لكانتْ هي!

قال: ثمّ ماذا؟

قالت: ثمّ إنّها ذات قِناع مَنْسوج من الصّفاء، صفاء الماء، وصفاء الضّياء، ولو أنّ الرّقة، والمَلاحة تجسّما لما كانا غيرَها، ثمّ إنها كالماسة الغرّاء احتضنها إطارٌ من الذهب، حتى لتبدو جديرةً بريشة فنّان كريشة دافنشي، وأنّى لدافنشي أنْ يرسمَ بريقَ الأنس، والوَداعة في عينيها؟! أو يرسمَ الهَالة المُشعّة المنبثّة في أعطافها؟! إنّها شَلالُ وردٍ حطّهُ الغيمُ من علٍ، وإنّها يا بُنيّ، في جملة واحدة: خَريدةٌ من عَذارى الحيّ مِعْطارُ!"[١٩]

ويأتي لها وصف على لسان زوجها عطية كذلك فهي تمثال جميل أبدع صانعه في نحته ورسمه بل هي ظبي حائر محكوم بسياج لا يستطيع الهرب بكل ما يوحي هذا الوصف للدلالة على جمال عينيها ، يقول : "ولولا البريقُ المتألّق في مُقْلتيها، لحسبَها تمثالاً، أو ظبياً حائراً أحاطَ به سياج."[٢٠]

ومن ذلك ما ورد على لسان اجميعة أم عطية أيضا وهي تصف والد عائشة ووالدتها فتقول: " أمّا أبوها سالم أبو عوينة فرجلٌ سُبك من الذَّهب الإبريز، يُعْرَفُ بفضله، ويُرْجَعُ في الأمور إلى قوله، قد اتّسم بالطُّول، طولِ قامته، وطولِ حِلْمه وأناته، وطولِ خبرته وتجاربه، وأمّا أمّها شِيْحة فقارورة عِطْر أوجزتْ ما في الكروم من أزاهير، سمراءُ الوجه، عذبةُ الحديث، قصيرةُ القامة، زهيدة الجُثّة، دائبة النشاط، كأنّها النحلة لا تستقرّ، فلا يكادُ نشاطُها يقف، ولا جودُها لأضيافها، وللحصّادين ينقطع"[٢١]

(١٨)الرواية ، ص١٥

(١٩) الرواية ،ص٤١

(٢٠) الرواية ، ص٤٣

(٢١) الرواية ، ص٤٢

الطريقـة الثانيـة: بنـاء الملامـح الداخليـة للشخصية، ماذا يحب؟ ماذا يكره؟ كيف يفكر؟ ما هي اهتماماته؟ وماذا يدور في عقله من أفكار؟

ومن أمثلتها وصف أحد أبطال الرواية وهو ضيف الله على لسان الراوي: " والقريةُ كلّها قد نَدبتْ شاباً جَهْوري الصّوت، يعلو أسطحَ منازلِها، وينادي عابرَ السَّبيل، والجائعَ المُعتر: "يا مَأكل الزاد، وأجرك على الله".. كان نداء يتصاعدُ في كلّ شتاء "[٢٢]. وهي صفات الكرم والجود التي عرف بها ضيف الله وخاصة في وقت الحاجة في فصل الشتاء.

وكذلك نجد وصفا لضيف الله بالوطنية، وحب الأمة، من خلال حوار يدور بينه وبين أهل القرية. كما يرد مثل هذه الصفات على لسان (اجميعة) حين قالت عنه، وهي في وصفها تقف عند شخصيته الاجتماعية المتمثلة في أنه إنسان يعيش للناس جميعا، ولا يعيش لنفسه، وهي من الصفات التي تحبها المرأة في زوجها وخاصة في المجتمعات القروية والريفية، حيث الروح الجمعية تطغى على روح الفرد :

" والفتاةُ تحدّثُ نفسَها عن ذلك الشّاب، وقد ألمّتْ بخصالِه حين عرفتْهُ في الحصَاد، فرأتْه جَسيماً قَسيماً، فآنستها إشراقةُ وجهه، وخفّةُ حركتِه، وطلاوةُ لفظه، ونفسُه المتوثّبة إلى غَوْث ذي الحاجة"[٢٣]

ونجد وصفا له ولملامح شخصيته الداخلية مثل صفة الكرم، واستقبال الضيوف، ومقابلتهم بالكلمة الطيبة، وتقديم القهوة والطعام لهم، ويرد ذلك على لسان الراوي، فكل من يأتي من ضيوف من خارج القرية يعرفون بيته، فيأتون إليه دون تردد، وهو لا يمن على أحد بكرمه يقابلهم ببشاشة ورحابة صدر :" كانت نيرانُ ضيف الله عامرةً بدلال القهوة، وقِرى الضيف، فما ينزلُ في البساتين، أو القرية نازلٌ إلا أصابَ شيئاً من ذلك الزّاد، وتلك الدِّلال، وقد حفّتهُ تحيةٌ عريضة: يا هَلا بالضّيف ضيف الله، وهو إذ يلقى رفاقَهُ، وضيوفَهُ، يقبلُ عليهم في بشاشة، ويُصغي إليهم في محبة، فيقومون من عنده، يمتدحون كرمَ خُلقِه، ويدِه."[٢٤]

ونجد وصفا للجد سلمان على لسان حفيده قاسم وهو يتحدث عن إنسان مختلف– على أميته– وكأنه يرسم لنا صورة رومانسية لشاعر مرهف ذواق أو رسام فنان إذ يقول: " وبينا هو غارقٌ في لُجج التأمّل، والتسبيح؛ إذ انبعثَ صوتٌ يُناجيه، صوتُ حفيده قاسم: يا جدّي، اشربْ كوبَ الحليب، ما لكَ قد ذَهِلْتَ عن الشَّاي والقهوة، وخُبز الصَّاج والمُهْرة، كأنّما أنت شاعرٌ يناجي الأطلالَ والأثافي، ويستدعي الألفاظَ والقوافي، أو كأنّما أنت رسّامٌ يتهيّأ لنقل هذه الطبيعة الفاتنة إلى إحدى لوحاته، فيُعْمِلُ فيها ألوانَهُ وفُرشاته"[٢٥]

كما توقف الكاتب عند "ميّاسة" فوصفها في أجمل وصف جمالاً ورقةً وأدباً، حيث يرسم لنا صورتها الجسدية، وما تملك من جمال، بالإضافة

(٢٢) الرواية ص ١٩
(٢٣) الرواية ص١٩
(٢٤) الرواية ص١٩
(٢٥) الرواية ص٥

إلى أدبها الجم وخلقها الرفيع، يقول: " فاختالتْ باقةٌ من ذلك الزّهر بين مضارب القبيلة، تَسْبي الألباب، وتَفْتِن النواظر، وأنعمَ ابنا العمّ نظريهما في الزّهر المائسِ المتماوج؛ فإذا زهرةٌ باسقة، قد بلغتْ في الأدب غايتَـهُ، وفي الجمال مُنتهاه، زهرة تبتسمُ في روضةٍ يحملُ النسيمُ ريّاها العَطِر إلى الأفئدة، فينعشُها، ويلوّعُها، ويُرْمِضُها!

كانت تلك الزّهرة هي "ميَّاسة" ذات الثمانية عشر ربيعاً، التي تزاحمتْ فيها صنوفُ الفتنة، قَدٌّ بارع، ووجهٌ مُشْرق الطّلعة، وعينان سوداوان فيهما فتورٌ، وإغضاء، وأنفٌ ركّبتْهُ يدُ الجمال."[٢٦]

كما توقف الكاتب عند وصف شخصية الضابط الإنكليزي (هورسفيلد)، فيصف لباسه وقبعته وتعاليه وتكبره على الناس، والحطّ من مكانتهم كعرب وأردنيين، وهي صورة لا تختلف عن صورة كل ضابط مستعمر للبلاد العربية، وهم يتعاملون مع أهل البلاد المستعمرة بكل تكبر واستعلاء وحقد ونظرة دونية، وهو أيضا يسخر ويستهزئ بكل ما فيهم من صفات، وما عندهم من عادات، واصفا إياهم بقذارة الثياب والطعام بل تجاوز ذلك ليجعل الكلاب أفضل منهم ، يقول: "قال: غزا الجرادُ القرية قبل نحو شهر، فأُرسلتْ فرقةٌ لمكافحته بقيادة المستر "هورسفيلد"، ذلك الرجل الطويل الأبيض، ذو القبعة المدوّرة، والجَزْمة الطويلة، فنصبوا خيامَهم في الضّحل، وربطوا خيولَهم، ثمّ بدأوا عملَهم، وأخذ المستر يرطُن، ويلوي لسانه، ويتشدّق، فَيُضحك رفاقَهُ من أهل القرية، ويذكرُ ما ليس فيهم من قذارة ثيابهم، وعفَن أجسامِهم، وحماقة عقولِهم، ويفضّلُ عليهم الكلابَ التي تدورُ في الحارات، والقططَ التي تموءُ على المزابل!

ثمّ يُضحكُهم على سائر أهل الأردنّ، ويتهمُهم بالخنوع، والاستكانة، وعِشْق أحذية الأجانب، ويضربُ على كلامه دليلاً أنَّ بلداً يعدّ نحو مليون إنسان يحكمُه أربعةُ ضباط إنجليز بإمرة كلوب باشا! "[٢٧]

كما توقف الكاتب عند شخصية (كلوب باشا) الضابط الإنكليزي الذي أصبح قائدا للجيش الأردني أيام الانتداب، الذي يصفه بالمكر والخداع، وفي الوقت نفسه هو لا يوفر جهدا في الفتك بالناس، وهو يرسل عيونه وجواسيسه بين الأهالي، وهو أشد خسّة من الكلب، وكأننا– من خلال هذا الوصف– نرى كلوب أمامنا ،فيقول:" وجاءا بـ"كلوب" يحكمُها، هذا الثعلبُ في خداعِه، الضّبع في فتكِه، الذي يرسلُ عيونه؛ فَيَنْفُذون إلى ما لا ينفذُ إليه الهواء، وإنّ نعتَكم له بالكلب لَيُنقصُ من شأن الكلب في وفائه؛ إذ لا يليقُ بهذا الحيوان الوديع أن يقترنَ اسمُه بمجرمٍ وضيع! فتضاحكوا ساخرين، وقالوا: وألعنُ مِنْ الكلب ذيلُه!"[٢٨]

أما(خنيفس) ذنب كلوب باشا أو ذيله، فهو الشرطي المسؤول في المخفر الأمني في بصيرا، وهو أداة للمستعمر، وهو من يمثل الظلم بتعذيبه لأهل القرية، حتى ضُرِبَ به المثل في القسوة والتعذيب، وفي حديثه هنا عنه ينقل لنا أحداثا معروفة وقعت في بصيرا في عهده، تتمثل في

(٢٦) الرواية ص٨

(٢٧) الرواية، ص٢٤–٢٥

(٢٨) الرواية ص٢٠

حكم الناس بالحديد والنار، حتى صار يضرب به المثل في القسوة، وكأنه حكومة مستقلة أطلق عليها في الموروث الشعبي عبارة (حكومة خنيفس)، فيصفه ويصف أعماله الوحشية، فيقول: " قال: بئسَ ذاك الوحش الذي يتلذّذُ بتعذيبِ فريستِه، لا يُفرّق قلبُه بين طفلٍ، أو امرأة، أو رجل، وأدنى العذاب عنده أنْ يُدخلَ الآدميَّ في كيس، ويُسلّط عليه قطّةً جائعة، يحشرُها معه داخلَ ذلك الكيس المُغلق، فلا تزالُ القطةُ تَخْمِشُه، وتجرّحُه، وتضطربُ على جسده، وتُدمي عينيه، وتمزّقُ لحمه، والذئبُ الأغبرُ لا يفتأ يضربُ الكيسَ بعصاه يُهيّجُ القطة، ويؤلمُ الآدميّ، حتى يعترفَ بما لم يفعلْ، وقد انتابَهُ جُنون، أو ما يشبهُ الجنون!"[٢٩]

كما نجد وصفاً لوالديْ عائشة(سالم أبو عوينة و شيحة)، على لسان اجميعة التي تريد أن تخطبها لابنه عطية، فوالدها سالم معروف بالفضل والحلم والأناة والحكمة وطول التجربة، بالإضافة إلى صفاته الجسمية التي ذكرتها فيه، أما أمها شِيحة فتصف جمالها، ولا تتوقف عند ذلك، إذ تتحدث عن نشاطها وحركتها وكرمها، فهي مضيافة لكل الناس، ولا تنسى الحصادين، الذين هم بأمس الحاجة إلى الطعام والشراب: "قالت: أمّا أبوها سالم أبو عوينة فرجلٌ سُبك من الذَّهب الإبريز، يُعْرَفُ بفضله، ويُرْجَعُ في الأمور إلى قوله، قد اتّسم بالطُّول، طولِ قامته، وطولِ حِلْمه وأناته، وطولِ خبرته وتجاربه، وأمّا أمّها شِيْحة فقارورة عِطْر أوجزتْ ما في الكروم من أزاهير، سمراءُ الوجه، عذبةُ الحديث، قصيرةُ القامة، زهيدة الجُثّة، دائبة النشاط، كأنّها النحلة لا تستقرّ، فلا يكادُ نشاطُها يقف، ولا جودُها لأضيافها، وللحصّادين ينقطع"[٣٠].

ويقف الكاتب عند شخصيتين مهمتين في الرواية، زوجين لم ينجبا، لكنهما رمزان للشر والخراب والحسد في القرية، إنهما حَنيش ورَقْطاء، هما أفعيان سامان، تجتمع فيهما كل خصال الشر، وأهم خصالهم الحسد وخراب البيوت حيث يقف عند كلمة الحسد وهو يقسم حروفها تقسيما يعكس أثر الحسد على نفسيهما وعلى الآخرين كما يوظف مفهوم الضمير في النحو ليرسم ضميريهما وكأن كل واحد منهم شخصية مستقلة في الحسد فكيف حين يجتمعان؟. يقول الكاتب: " وقائل: إنّهما ثعْبانان سامّان، تمثّلا على هيئة البشر،غير أنّ القائلين كلّهم أجمعوا على أنّهما زَوْجان يعيشان بضميرين مُنْفصلين، وأنّهما مُصابان بمرض مُعْدٍ رمزُه حاء، وسين، ودال، وأنّ الذكر الذي يُقال له "حَنيش"، قصير ممتلئ، مُدوّر الوجه أسوده، مُجعّد الشَّعر، له سالفان طويلان يُشبهان الجَزْمة، وله سَكْسُوكة كظهر الضَّفدع، وشاربان كثّان، قد انسدلَ منهما على جانبي فمه ذَنَبان كذنبي الفأر، وأنّ الأنثى التي يُقال لها "رَقْطاء"، طويلة، نحيفة، موشومة الوجه، عَجِلة الكلمة، كثيرة اللَّجاج، إذا قيلَ لها: نعم، قالت: لا. أو قيلَ لها: لا، قالت نعم! ولا يذكرُ أهل القرية لهما إلا مَنْقبتين: الأولى: أنّهما قد بلغا الغاية في الذّكاء، وتوقّد الذّهن،

(٢٩) الرواية ص٢١

(٣٠) الرواية ص٤٢

وجَوْدة القريحة. والثانية: أنّهما حازا القِدْح المُعَلَّى في البيان، وفنّ القول، وبراعة المَنْطق"[٣١].

كما يرد وصف لشخصية حَنيش على لسان زوجته رقطاء، وما يعرف عنه من كذب وسرقة وغيرها، وما فعله طيلة حياته مع أهل القرية فتقول: " قالت ضاحكة: يا لَفرحة قلبي، أمسيتَ يا زوجي مَلاكاً سامياً، وصِدِّيقاً مُقرّباً، وقد عشتَ ثلاثين سنة، لم تسرقْ، ولم تَفْتِنْ، ولم تكذبْ! لم تسرقْ إلا ستين كَرْماً، ولم تفتنْ إلا ستين مرة، ولم تكذب إلا ستين كذبة في السَّاعة! والله، يا حَنيش، شَرُّك ليس بأقلّ من شرّي، هيّا، اسعَ في الظلام كالثّعبان، واحذرْ أنْ يدركك الصّباح، فإذا أدركك الصّباح صار وجودُك عبثاً، فإنّما خُلقتَ لتلهو وتلعب، ولكنْ في الليل الحالك."[٣٢]

يرسم الكاتب صورة ل (رقطاء) هذه المرأة الأفعى التي تنفث سمومها في كل اتجاه ويرد ذلك على لسان زوجها الثعبان أيضاً حنيش في نهاية حوار يدور بينهما يعجز عن مسايرتها، ولا يستطيع الانتصار عليها في المحاججة، والكاتب ينجح بما يملك من ثقافة لغوية، وما يملك من مفردات، وما يملك من مهارة هندسة الكلمات والجمل والتوازي الموسيقي، المتمثل في التكرار واستخدام الجمل الموزونة، ينجح الكاتب في بناء هذه الشخصية الفريدة من نوعها، فيقول: " حاشا لله، أنّى لمثلي أنْ يسخرَ من قلب امرأة، هي شقيقةُ روحي، ونورُ عيني، ولقد قرأتُ للعرب، والعَجم، والبربر، ومَنْ عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، فما رأيتُ أمتع، ولا أكتع، ولا أنجع، ولا أبصع، ولا أفجع، ولا أسطع، ولا أشجع، ولا أمنع، ولا أفظع، ولا أطوع، ولا أروع، ولا أسرع، ولا أنفع، ولا أينع، ولا أبشع، ولا أبدع، ولا أشنع، ولا أبلغ من كلامِك الزّخّار الذي يكاد سنا برقِه يذهبُ بالأبصار!"[٣٣]

أما عطية أحد أبطال الرواية فيرسم الكاتب له شخصيته منذ الصغر، وكيف صار يافعا راشدا ذا عقل راجح، متزنا محبا لوالدته، سائرا على نهج أبيه وجده، ويتوقف الكاتب عند البعد الجسدي للشخصية، صفاته الجسمية والبعد النفسي، وصورته من الداخل، والبعد الأخلاقي، أي ما عنده من أخلاق، استمدها من والده وجده، والبعد الديني المستمد من ديننا الحنيف، المتمثل في حبه لأمه وطلب رضاها، يقول: "كَبِرَ الصبيُّ الراعي عطية، واشتدّ ساعدُه، فآنست أمُّه منه رُشْداً، وأقبلتْ عليه يوماً، وهو جالسٌ على صخرة يرقبُ غنمه، فرأته كأجمل ما يكون فتىً في مثل سنّه: طويلاً فارهاً، خفيفَ اللحم، أزهرَ الوجه، وسيمَ الطّلعة، برّاق العينين، مُستقيم الأنف، في شفتيه رقّة، قد طرّ شاربُه، ونبتَ شَعْرٌ خفيفٌ في لحيته، فما رآها حتى أخذ يديها ورأسَها يقبّلها، ويُحمّلُ تلك القُبل حُبّه وامتنانَه لها، ويفْرُش مِنْديلَه؛ لتجلسَ عليه، وهي تدعو له بطول العُمر."[٣٤]

وفي موقع آخر يصف الكاتب فروسية عطية وشجاعته، فهو رجل فارس شجاع، لا يهاب

(٣١) الرواية ص٤٦-٤٧
(٣٢) الرواية ص٧٦-٧٧
(٣٣) الرواية ص٥٢
(٣٤) الرواية ص ٣٩

الموت، يهجم بكل ما أوتي من قوة على رجال مسلحين، وهو بلا سلاح، سلاحه الحجارة ، لكن القوة والسلاح فرضتا واقعاً، فتمكن منه الغزاة المسلحون فيصيبونه ويريدون الإجهاز عليه، لكنهم حين نظروا في وجهه عرفوا أنه عطية بن ضيف الله، فيخجلون من فعلتهم؛ لأنهم أكلوا الزاد في بيت أبيه طعّام الزاد. يقول:

" شمّرَ عطية ثوبه، وشدّ مِنْديله على رأسه، واستحالَ إلى أسد هَصُور، وكشّر عن أنيابه، وقد عزمَ على دفع الظلم، وألّا يكون ثالثَ الأذلّين، عَيْر الحيّ والوَتد، وجعل يزأر، وانطلقَ كما ينطلقُ السّهم، وانقضّ كما ينقضّ القَدَرُ المحتوم، فما راع المسلحين الأربعة إلا حجارة تمطرُهم من فوقهم، وتُدميهم، وهم أسفلَ المنخفض، وإذا زئيرٌ يفزعُهم، وضجيجٌ هادرٌ يزلزلُ أقدامَهم، وقد ارتعشتْ أيديهم، فلم تُفْلح في توجيه الرَّصاص نحوه، وانزووا إلى شُقوق التلال، وحسبوا أنّ مَنْ يغيرُ عليهم ليس هذا الرّاعي الأعزل، وإنّما هو رجلٌ قد تلبّسه ثلاثة فرسان من الزّمن الغابر، وقد طُوِيَ الزمانُ، فأخرجَهم!"[٣٥]

وعندما مات بطل الرواية عطية يقف الكاتب مرة ثانية عند صفاته وقد فقدته القرية يقول:

" وأُعْلِن نَعْيُهُ في القرية، وأُعْلن أنّ القمرَ غاب؛ فلا يَطْلع بعد هذا اليوم..

وأنّ مَن افتقده، ليس أهلُهُ

فحسب، بل نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدر..

لقد مات عطية، ومضى:

مَضى طاهِرَ الأَثوابِ لَم تَبقَ رَوضَةٌ غَداةَ ثَوى إِلّا اِشتَهَت أَنَّها قَبرُ!

وتصايحتْ ألسن كثيرة في جنبات القرية، تذكر الرّاحل، وتندبُه:

مات مَنْ كانتْ الدنيا تتبرّجُ له فلا تغرّه، ويتجهّمُ الموتُ له؛ فلا يضرّه.

ماتَ مَنْ كان يقفُ في بستانه ينتظرُ الطلبة العائدين من مدرسة القرية؛ فيعطيهم شهيّ الفاكهة محبةً وشفقةً، وأجملُ وجهٍ في الورَى وجهُ مُحْسنٍ!

مات العَطُوف الرقيق الذي كان يبكي أطفالَهُ الذين قَضَوا صغاراً، وهو شيخ كبير، ويذكرُهم بعد أربعين سنة من وفاتهم.

ماتَ الذي كان موضعَ الإعزاز من جميعِ أهله، وأهلِ بلده.

ماتَ؛ فأظلّ الحزنُ زوجَهُ، وجلستْ هامدة، لا تأتي حركة، وإنّما هي دموعٌ غِزار تنهلُّ في صَمتٍ على وجه كانتْ تأتلقُ فيه نضرةُ النعيم قبل هذا الحَدث الأليم!

أمّا هم فوقفوا على قبره يُتمتمون بكلماتٍ قطّعَها الحُزن، ومزّقها الأسى: برَّدَ اللهُ بالرّضوان ثراك، وسلام عليكَ أيُّها الوالدُ الحَنُون، يومَ ولدتَ، ويومَ مِتّ، ويومَ تُبعثُ حيّاً."[٣٦]

أما شخصية إبراهيم بن عطية الذي صار إماما للمساجد، وخطيبا على المنابر، فقد رسم الكاتب شخصيته، وورد ذلك على لسان حَنيش الذي يتوب على يديه، ويتوجه إلى الله بعد حياة حافلة بالفساد والإفساد والخيانات والسرقة والكذب

(٣٥) الرواية ص٥٧-٥٨

(٣٦) الرواية ص٢٤٦-٢٤٧

والحسد وخراب البيوت، ثم يبين لنا منهج الشيخ في الدعوة إلى الله، وكيف يقنع الناس بالدين؛ ليهتدوا بأسلوب جميل محبب، وهو ما نحتاجه الآن في الدعاة وهي الرسالة التي أراد الكاتب أن يوصلها للناس في عصرنا هذا فبعض الدعاة تنقصهم الحكمة والأسلوب في إيصال رسالة الدين للآخرين، يقول:

" قال: ما زال الشّيخ إبراهيم يَعِظُني، ويذكّرني بالآخرة، ويُدنيني من مجلسه، ويُريني التابوت المركوز أمام الجامع، ويُتحفني بأريحيتِه، ويتلطّفُ بي حتى هداني الله على يده..

قالت: مَنْ إبراهيم هذا؟

قال: فارسُ القلم والمِنْبر، وغارفُ العَبير من أدباء أهدوا إلى العربية غُرر القلائد، وبديعَ الفوائد!

قالت: ما عرفتُه، فزدني بياناً.

قال: كاتب البحر، "بحر الشَّواهد"، والخطيب الذي تشرئبُ إليه الأعناق، وتتزاحمُ على مجلسِه الرُّكب، والقارئ الذي تسكبُ تلاوتُه في الفؤاد لذّة وخشوعاً، تنوءُ بوصفها الأقلام!

قالت: كأنّي عرفتُه، أهو ابنُ الحاجّ عطية؟ ذاك الذي وضعته الطّبيبة على النافذة، وهو رَضيع؟

قال: أجل، إنّه هو،غير أنّه نزلَ من النافذة إلى دنيا الناس، وأتاهم من الباب يتوخّى تبصيرَهم بالحكمة، والموعظة الحسنة."[٣٧]

ويصف الكاتب شخصية عودة بن خليل وهي إحدى الشخصيات الثانوية في الرواية تلك الشخصية الفكهة خفيفة الظل الضاحك دائما الذي يصنع الطرائف والنوادر والحيل، وهو وجه آخر لشخصيات القرية، أو هو جحا القرية، وله مقالب كثيرة مع أصدقائه، وهذه الشخصية لا يخلو منها أي مجتمع قروي، "وهناك في فِناء مطحنة مُحيي الدّين، يَكْمُنُ عودة بن خليل، ذلك الفَكِهُ المَرِح، خفيف الظلّ، الذي لا يُرى إلا ضاحكاً، والذي عرفه الناسُ بسرد النَّادرة، وسرعةِ البادرة، واصطناع ألوان من المقالب والحِيَل التي تُضحكُ الثكلى التي فقدتْ وحيدَها"[٣٨]

كما يتوقف الكاتب عند شخصية يونس الأخرس الذي يوظفه الكاتب في الرواية وهو أخرس؛ لينقل الأخبار في القرية، مستخدما لغة الإشارة، وكأن الكاتب ترك نقل الأخبار للخرسان، وليس للناطقين، لأمر يريده. والمفارقة أن الأخرس هو الإذاعة المتنقلة، التي تنقل أخبار القرية من دكان إلى دكان، ومن بيت إلى بيت،فهو أي الكاتب لا يريد نقل الأخبار أو البوح بها، بل يتركها للقارئ، ليؤولها كما يريد، يقول عنه " أمّا وِكالةُ أنباء السّوق غير الناطقة فيونس الأخرس، الذي يُقبلُ وافرَ القوة، مُعتدلَ القامة، يقبلُ بوجهه المُحمّر، ومِنْديله الأبيض، حاملاً شيئين لا يُرى إلا بهما، جاكيتَهُ الأخضرَ الفاتح، وعصاه الطويلة التي يلاحقُ بها أولادَ الحارة، وهو يُهَمْهِم ويُهامر، ثمّ يجلسُ أمام دكّان مَطَر، فلا يلبث أنْ يقوم ويجول في السّوق، ينقلُ الأخبار من دكّان إلى دكّان، بإشارات يديه، وحركات جسمِه، وعينيه، غير أنّ شيئاً واحداً في السّوق يستغلقُ عليه فهمُه،

(٣٧) الرواية ص٢٠٦-٢٠٧

(٣٨)الرواية ص٨٦

فيحار فيه عقلُه، وما أسرعَ ما يتوقّفُ عنده كعادته كلّ يوم "[٣٩]

أما شخصية أحمد بن عطية، وهو أحد أبطال الرواية، وهو كاتب هذه الرواية، فهو يمثل دور الحفيد والابن، فقد بنى الكاتب شخصيته مذ كان طفلا حتى صار شابا وأديبا كبيرا، يحصل على جوائز عالمية. فأمّه عائشة رسمت لنا شخصيته حين كان طفلاً، عصبي المزاج، كثير الحركة، وتقف عند وصف جميل له تختزله في عبارة جميلة، فهو لا يعجبه العجب، ولا شوربة العدس، فالمتلقي يتوقع أن يسمع العبارة الموروثة في المجتمع الأردني (لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب)، لكن الكاتب وضع العبارة الأخرى في وصف شخصيته على لسان أمه؛ ليرسم صورة الفقر والحالة الاجتماعية والاقتصادية للعائلة، مثلها مثل بقية العائلات الأردنية في القرى والأرياف. تقول الأم عنه في حوار لها مع ابنها الأكبر سامي:

" أحمد، وفّقه الله، وكتبَ له النُّجح في دُروسه.. ثم تضحك؛ فيقول: بالله ما يُضحكك؟ فتقول: أحمد هذا، كان في صغِره عفريتاً، عَصبيّاً، كثيرَ الحركة، لا يعجبُه العَجب، ولا شوربة العدس، ولا دِبْس العنب! وكم قد ألقى عليّ من حجارة الشّارع، والعُلَب الفارغة، والعَجلات المُهترئة؛ فأضجرني، وصدّعَ رأسي، وأتعبَ لساني، وقد أصبح اليوم عاقلاً هادئاً، يرضى بكلّ شيء، ولا يرضى من السَّلطة إلا إذا أدخلتُ يدي فيها، الله يرضى عليك يا أحمد، فقط!"[٤٠]

ويرسم الكاتب صورة حديثة جديدة لأحمد بعد أن صار شابا وأصبح مشهورا معروفا بين الناس بعلمه وأدبه وتدينه وورد ذلك على لسان حنيش بعد أن تاب وتوجه إلى الله في حوار يدور بينه وبين زوجته رقطاء يقول عنه :" شادٍ على فَنن أمرع، لا تشتهي الكلامَ في مَحْضَرِه؛ لأنّ لذتَك في أنْ تسمع، فلا تنفكّ مُثْلَج الصّدر، ريّان الرَّوْع، وقد كدّ وتعب حتى نال "العَالِميّة" في الأدب"[٤١]

أما خالد بن عطية أحد أفراد عائلة الرواية فيقف الكاتب عنده ليرسم لنا صورته حين كان طفلا صغيرا وسيما ذكيا كثير الحركة وكيف كان مشاكسا في البيت مزعجا في طفولته، لكنّ أخاه الكبير أحمد ذات مرة عنّفه على ما فعل فاستقام أمره،ثم اعتنى به في المدرسة إذ كان معلما فيها، فرآه ذكيا مجتهدا ومتميزا بين أقرانه فرعاه واهتم بتعليمه فصار معلما، ثم واصل دراساته العليا، حتى أصبح أستاذا جامعيا لامعا. يقول:

" وهذا كان ممّن وُلد في السّنين المُخْصبة، في وجهه وسَامة، وفي جسمه ميلٌ إلى السُّمَنة، وقد جمعَ في صغره إلى النَّجابة كثرةَ الحركة، والشَّغب على أمّه، فما كانتْ ترفعُ عليه يداً، لِفَرْط محبّتها له، كأنّما شامتْ مُستقبلاً له بأنْ يحملها في عينيه كما حملتْهُ هي في رَحِمها ويديها وعينيها، وحملتْ معه إخوةً له وأخوات.

(٣٩) الرواية ص٩٠

(٤٠) الرواية ص١٦٨

(٤١) الرواية ص٢٠٧

عاد أخوه الأستاذ أحمد ذات ظهيرة، وإذا زوابعُه قد عصَفتْ، وأفسَدتْ نظامَ الدار، وأمّه تتقي بيديها من الحجارة المُوجّهة لها بأشعة الغضَب، فما رأى الأستاذ مسلكَ أخيه المُشاغب حتى أمسكَ به، وأوجعَهُ ضرباً، فنشجَ ونَحَب، وانهمرتْ دموعُه، وسالتْ على ثوبه الأبيض القصير، ثمّ سرعانَ ما استرضته أمّه، وكانت تلك الحادثةُ آخرَ عهدِه بالشّغب!

وقد درّسَهُ أخوه الأستاذ أحمد في المدرسة، فرأى فيه غيرَ ما رأى في كثير من الطّلبة، رأى فيه مُثابرة علميّة دائبة، وطلاقة بيانية مُبهرة، وقوةَ شخصية طاغية، اجتمعتْ في مَرْكب واحد قاده إلى التفوّق، فأدهشَ أساتذته بغزارةِ معارفه، وقوّة حُجّته، فأحبّوه وقرّبوه إليهم، ونثروا عليه أزاهير الثناء والإطراء!

ثمّ نال العالِميّة، وأصبح أستاذاً في الجامعة، يُلقي دروساً يَمْزِجُها بالسَّمن والعَسل، ويتصدّر المحافل العلميّة؛ فيسلب الأسماعَ بسحر بيانه، وجودةِ إلقائه، حتى إنّ المَسْحورين يُقبلون عليه، يعصرون يدَهُ من الإعجاب، والدّهَش، ويأخذون في الهُتاف مُبهورين: يا لكَ من ساحر عليم، يا دكتور خالد!"[٤٢]

أختم هذا البحث عن شخصيات الرواية، بما قاله أهل القرية عن عائشة حمالة القمح عندما وقفوا على قبرها مودعين وهم يتذكرون خصالها:

" وإنّها لفي قَبْرها، تحتَ الثرى، وقد وقفَ أولادُها يدعون لها بالثَّبات عندَ السُّؤال، والسَّعة في الرِّياض؛ إذ ضجّتْ حناجر تَهْدُرُ بالنَّحيب، وتَشْرَقُ بالدّمع، فينظر أولادُها؛ فإذا رفاقٌ لهم طالما أكلوا من زادِها، وحَظُوا بدعائها يَدْعُون لها:

سلامٌ عليكِ أيّتُها الخالة الكريمة،

سلامٌ على شُعاعك الذي استنارتْ به المُقَل والأنفس،

سلام على أطهر قلبٍ ولسانٍ وإزار،

سلام على خَطْوكِ، وسَعيكِ، وذكراكِ..

خَشِيَ رفاقُ الشّيخ إبراهيم من طُول إغماءته، فمسحوا جبينَهُ بالماءِ البارد، وضربُوا أصداغَهُ بأيديهم؛ فأفاقَ، وكلماتٌ تتفلّتُ من لسانِه:

غابَت الشَّمس، فما وجودي في هذا الليل الحالك..

غابت الشّمس التي أنبتَتْ ثلاثَ عشْرَةَ سُنبلة..

غابتْ حمَّالةُ القمح..!"[٤٣]

وأخيراً لقد سعى الكاتب بكل ما أوتي من إبداع، وبراعة لغوية، وبلاغية، إلى بناء شخصيات روايته بناء دراميا مثيرا، وحرص كل الحرص على تعميق أثر هذه الشخصية، أو تلك في مجتمع الرواية، وكيف بنيت الأحداث في هذا العمل الفني؟ وكيف نقلها بكل براعة من مكان إلى مكان؟ ليس في القرية (بصيرا) فحسب، بل في مدينة الطفيلة وقراها ثم العقبة وعمان والكرك ولندن، وهو يتابع شخصيات روايته، وما قامت به من أحداث.

المراجع:

١. الأعرج وسيني: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦

(٤٢) الرواية ص٢٥٩-٢٦٠

(٤٣) الرواية ص٢٦٨

٢. أوئيليه، بورتوف:عالم الرواية: ترجمة نهار التكرلـي، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، بغداد، ١٩٩٠
٣. بحـراوي، حسـن: بنيـة الشـكل الروائـي (الفضاء الزمن الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠.
٤. بوتور، ميشال: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، بيروت، منشورات عويدات.
٥. رضوان، عبدالله: النموذج وقضايا أخرى، عمان، رابطة الكتاب الأردنيين، ١٩٨٣م.
٦. زبابجـة، صـبرينة: بنـاء الشخصـية فـي الروايـة الجزائريـة، وطـن مـن زجـاج " لياسـمينة صـالح أنموذجـا " رسـالة ماجستير، جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية ٢٠١٤/٢٠١٥ م. إشـراف: حوريـة مباركي.
٧. د. الحوامـدة، نجـود. عطـاالله: الخطـاب الروائـي فـي روايـة متاهـة الأعـراب فـي ناطحـات السـحاب للروائـي مـؤنس الـرزاز.، وزارة الثقافة الأردنية، ط١، ٢٠٠٩.
٨. خليـل، إبـراهيم: بنيـة الـنص الروائـي، الـدار العربية للعلوم، ناشرون، عمان، ٢٠٠٩
٩. د. السـعودي، أحمـد عطيـة: حمّالـة القمـح، دار المريخ للنشر ودار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٩
١٠. فورسـترأ.م: أركـان القصـة ، ترجمـة كمـال عياد، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦٠.
١١. د. نجم،محمد يوسف:فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت– لبنان ، ١٩٥٩م
١٢. النواتي، مصطفى: فن الرواية الذهنية لدى نجيـب محفـوظ، تـونس، مطبعـة تـونس قرطاج،١٩٨١،